

مَدَامُفِيء

الثلج

توفيق عثيمين

الإهداء

إلى من علّمتني السفر في
...جواهر خلجاتي
إلى من كان رحيقها حبرا تتلمّظه
...صفاتي
إليك أقضي حجاّ مبرورا دافئا
إلى مناطق تشتعل خضرة في
....مُتَلَاطِمِ أعماقي

هذا بعض من شهىّ شذاك
يستحيل مبان تضجّ بدافق
...المعاني وحمى الكلمات
وأختي الرائعة فتحة.. كانت دائما
تهديني مستقيم الصراط و تربت
على كلومي الغائرة في جميع
مفرداتي ... وأمي التي أرى في
ربعائها سروري وأهازيج
...صفاتي

ت - ع

تقديم

هذا كتاب أردته سفراً مُضنياً
في سراديب الذات... مُتعة تتقلب في
لُضى المفردات و سعي إلى
كشف الحُجب المتناثرة على
عتبات النفس الضّاجة
بالرّغبات... إنها الحيرة تأبى أن
تتصاع للإيحاء و أجدني أجد في
منازلة اللّغة أنشد ذرة ارتواء
فتصدني الكلمات و أتحفز في

كل صفحة للإيقاع بالمجداف فإذاه
يتشقق و تعلوه قتامة الإنزواء و
إذا المنافذ تلتف في حلقي و
يصبح لها طعم الجيف و رائحة الأموات
فأحملني إلى قوارب النّجاة و أغوص
في لذة الانتشاء أروم أن
تعتريني رعشة الإختراق... إنه
سيرٌ حيثُ نحو مراتب الصّفاء و خلوّ
الروح من شوائب الإمحاء... و
نظرت في بكر الفلوات فأدركت شقاء
الإنشاء و هذا التّيه اللولبيّ
يتوارى خلف الأنواع ثم تناقلت

كأنِّي أهُمَّ أَنْ أَرْكَبَ الشَّهْبَ وَانْبَرْتُ
أَمَامِي مَصَائِحِ الْمَسَاءِ فَرَكِبْتُ صَهْوَةً
التَّجَلَّى وَهَمَمْتُ بِرَحْبِ الْفَضَاءِ..
إِنَّهُ حَدِيثٌ يَتَمَطَّى فِي تَقَاسِيمِ
أَعْمَاقِي وَأَلْوَانِ مِنَ الْمِيلَادِ وَ
تَدَافِعِ لَذِيزٍ نَحْوِ لَذَائِدِ الْإِسْرَاءِ...
أَقُولُ كَأَنِّي أَدْغَدُغُ أَسْرَابَ الْجَمْرِ
الْمُتَخَثِرَةِ بِمَعِينِي أَسْأَلُهَا أَنْ
تَسْتَحِيلَ بِلِسْمَا مِنَ النُّورِ وَ
أَشْتَاقُ إِلَى الْحَرْفِ الْأَقْصَى
أَقْضِي بِهِ حَجًّا إِلَى الْمَعْنَى
الْمُبْتَوَرِ وَ قَدْ رَأَيْتِ الدَّفْعَ يَنْبُتُ مِنَ الْأَرِيزِ

وَأَيَقُنْتُ فِي الصَّقِيعِ الْمَتَغَلْغَلِ فِي
الصَّدُورِ سَلامًا وَدِرْعًا لِلشَّحُوبِ...

رَحْلَةً كَانَصْرَافِي إِلَى اللَّفْظِ اللَّغْزِ ثَمَلُ
بِهَذَا التَّدَافُعِ فِي شَرَايِينِي أَقْطُ مَضْجَعَهُ
وَأَنْزَعُ عَنِ الْجُمْلِ الْمَخْنُوقَةِ غِشَاءَ
الْيَقِينِ...

تَوْفِيقُ.

كان المساء يورق في
غرفتها منتشرا في أرجائها كثقل
السنين و هي تنظر إلى ملاءة
قديمة أثقلها الغبار و جلسة
المتقاعدین و راحت تقلب في
بقية الرماد المتجمع في التنور و هي
تحاول ترصيف الأثاث في تروم أن تضرم

النار لتدفاً ويدفاً من حولها
المكان فلملمت ما اختفى تحت الرماد
من الجمر ووضعت فوقه بعض
الأغصان اليابسة و ما جفّ من
أوراق الشجر ثم جعلت تنفخ فيهم و
ضباب الدخان و الرماد يثوران
في وجهها فيسيل دمعها على
خدّها المتجعّد ثم تتحدّى أسراب
الدخان و تضاعف من قوة النفخ
و أوداجها تعلو و تتخفض حتى ترى
السنة اللهب تتأجج صعوداً نحو السقف

فتكف عن ذاك و في نفسها هم و غم
كثيرين.

كانت صابئة حالكة البشرة
ازدانت عيناها بسواد إغريقي و
اعتلت جبينها الأخاديد العميقة
التي حفرتها الحرفة و الفاقة و
زمهير الزمن الذي ما يزال
يطرق غرفتها ذات كل شتاء بغيض..
أصابها هزال قاتم فأمست نحيفة
جدبى كورقة كالحة تتقاذفها رياح
الخريف و كان لسعالها دوي و
هو يخرج من بين مفارق صدرها

المرتجف كأنما هزته لسعات
الأريز.. كانت تغترش فروة خروف
تلبد صوفها و هي تداعب ابنها
شافه و تهدده مترنمة ببعض أهازيج
الأولين ثم ما فتأت أن مدّت يدها
نحو معطف زوجها المبقع برائحة العرق
فدثرت به ابنتها مدامة ثم
انصرفت تحضر القدر و كان من الطين
فصبت به ماء كثيرا ووضعتة فوق النار و
هي تحلم بحساء ساخن لذيذ..
كان الليل مدلهما يملأ أرجاء
الغرفة عتمة حينما هبت ريح

عطارد فارتجفت أرجاء الغرفة و
كانت من قوالب الطّين تشدّها أعمدة
من شجر الصنوبر وقد رصف سقّفها
بأعواد من القصب الأصفر اليابس و
طلّيت جدرانها بمزيج من التبن و
التراب..

تحسّست صابئة الجمر
بمهمّاز من الحديد و أذكته ببعض
الخطب المرصف على يمينها ثم
جعلت تنظر حالمة إلى السنة
الّلهب و هي في صعود لولبي
كأنها تروم أن تشبّ في سقّف

الكوخ.. التذّت أطرافها بالدفع
المنساب من بين ردهات المأوى
الفقير و اعتلت محجريها حمرة
الشّوق إلى زمن العشق و فجر
النضارة و الوصال.. كان يتراءى لها
بأنفه الشارد و صدره المتفخ و
هو يطارحها حرّ الغرام و يغمر
صدرها بدفع عنيف.. و فيما
كانت تطالع أضغاثا واهية تعلوها
شطحات الدخان الذي بدا في تشيه
كشيخ أشعث يضحك ملء شذقيه
سمعت ابنتها تقول:

"

أمي... مالك تسافرين و ضباب الدخان
فلا نفع لك على حال؟ هل لك أن تروي
لنا حكاية نستأنسها فتأسي بها؟ "

شخصت صابئة نحو الطفلة
و قد هزّها قولها و راح يدغدغ
رفات أحشائها كزمزة الجنين
قبل انبعاثه فمسحت بيدها على
جبينها المترهلّ اعتلته سمرة
حادة و اشتدت عليه قبضة الزمن فبدا
ضاجا بالمياسم ثم هزت رأسها و حدّقت
في لون الجمر و قد توقّدت ثم همست.

" سكارى نحن البشر برغيف
قدّ من الصّخر فهو فتات الرمل
يستحيل خبزا فنألّفه قوتا كبعض
الكواسر من أهل الجبل.. حكاية
تطالعنا كبعض منا فهي جوهر
خالص ينشأ من بين الغدد مبان و
معاني تصغر و تكبر فينا فنسافر
في رحابها نروم شيئا كضياء البدر..
أرحل بكما اليوم إلى زمن الإنسان البكر
ينفض عن جلده رعشة الخنوع و في
نفسه توق مستحيل إلى التّأله و الظفر
بالخلود..